

المهمة الإنسانية للمحاربين من أجل السلام في العراق

".....كنت أود أن أقول أنه ليس من المعقول أن يكون الدين مع العنف و لكن الدين و الصواب هما اللذان يمضيان قدماً سوياً. موضوع محاضرتي - في ردي على مهمة الجامعة - كان عن العلاقة التي تربط الدين مع الصواب: كنت أود مساندة الحوار ما بين الديانة المسيحية و العالم المعاصر والحوار ما بين جميع الثقافات و الأديان. وتمتيت في فرص عديدة - على سبيل المثال في موناكو عندما سلطت الضوء على احترام كل ما هو مقدس بالنسبة للآخرين - ظهر بشكل واضح و جلي عمق احترامي للأديان الكبرى و بشكل خاص احترامي للمسلمين الذين "يعيدون إله واحد" و الذين نحن معهم ملتزمين "بحماية و ترويج العدالة الإجتماعية للجميع و لاسيما السلام و الحرية و القيم الأخلاقية....."

في السيارة المذياع كان يذيع كلمات البابا بينديكت السادس عشر التي صرح بها في الإجتماع العام الذي تم عقده يوم الأربعاء بالعشرين من شهر سبتمبر، و كنت في عجلة من أمري، حيث كنت متجهة نحو إندونو أولونة Induno Olona للمشاركة كمحاضرة في الدورة المنظمة من قبل منظمة ترانسبارينسي Transparency و من قبل وزارة الشؤون الخارجية الإيطالية بعنوان "بناء النزاهة و الثقة العامة و تأكيد الحقوق في العراق".

في العالم لم يكن قد بدأ بعد الجدل، بالرغم من التحديدات و التوضيحات، الذي نجم عن "خطاب راتيسبونا" الذي تم سوء نقله و إلى ذلك الحين كانت لا تزال تصلنا من الساحات الإسلامية أخبار عن مظاهرات إعتراض و إحتجاج. في حين قبل ثلاثة أيام فقط قام متطرف في الصومال بقتل راهبة كانت تعمل بالتزام في مجال الرعاية الصحية بمقديشو.

كنت أتأهب للملاقة العراقيين و كنت كالمعتاد، منذ شهر أغسطس بعام 2003 البعيد عندما ابتدأت أنا و مقاتلي السلام التنقل ما بين إيطاليا و العراق، مليئة بمشاعر الأمل و الثقة و الصداقة، بالرغم من الأخبار المقلقة التي كانت تأتينا عبر نشرات الأخبار.

و لكن هذه المرة سوف لن أظير نحو مطار الطليل بواسطة طائرة القوات الإيطالية موديل C130 و لن أعبّر الطريق التي تربط الناصرية ببغداد على متن مدرعة موديل VM حيث درجة الحرارة بداخلها تصل 50° بينما درجة الحرارة بالخارج تناهز 68°. و لن ارتدي الأحذية المعتادة و لا حتى المعطف الخفيف الذي يحمل شعار منظمة بادانا الإنسانية Umanitaria Padana Onlus كما أنني سوف لن ارتدي المعطف المموه الثقيل.....بل سارتدي فستان بسيط يلائم أكثر، أجواء مدينة فاريزي الحلوة و الهادئة و المرتبة بنهاية الصيف.

كنت أقود السيارة و في نفس أكنت أفكر بالعراقيين و هم دائماً بالطوابير – هكذا كنت أتذكرهم – من أجل وظيفة في الشرطة أو بالجيش أو بالبلدية، واقفين بالطوابير في الإنتخابات أو في أثناء إزدحام السير أو حتى لشراء الوقود، على الرغم أننا في العراق، و هذا شيء مذهل، ربما يكون هناك نفط كثير و لكن الوقود شحيح جداً!

كنت أفكر في العراقيين الواقعيين ما بين الشرق و الغرب و المحاصرين من قبل المصالح المتضاربة لأصحاب النفوذ القدامى و الجدد و من قبل النزاعات التاريخية مع الجيران و من قبل التقسيمات الداخلية المشتعلة.

كنت أفكر في ذلك الشعب الذي بالرغم من كل شيء – بالرغم من الحروب و الدكتاتوريات و الحصار و السياسة و أخطاء أكبر إستراتيجيين في العالم و بالرغم من الإرهاب الدولي – لا يزال واقف على قدميه و يتحرك و لا يزال يريد العمل و البناء و التعمير.

إنه شعب فخور و إيجابي و مبتهم، الشعب العراقي يعيش بلده و من أجله يمضي قدماً و من أجله يظل واقفاً في الطوابير خارج الثكنات العسكرية و خارج المدارس و المساجد و الكنائس و خارج مكاتب الاقتراع... و هناك بالذات، نعم في ذلك المكان بالذات، غريب بدون وجه و بدون وطن و بدون دين (ولكنه يؤمن بإيديولوجية فقط) فجر نفسه بداخل سيارة مفخخة بالتريتول، مخلفا وراءه الرجال و النساء و الأطفال الأبرياء و مخلفا معهم أمالهم.

عملية تفجير أخرى بالعراق... هل لا يزال أحد بالعالم يكثرث بهذا الشيء؟ فلقد أصبح روتين نمطي.

و لكن من وجهة نظر العراق الموتى ليسوا أرقام فحسب و لكن بشر، أشخاص من لحم و شحم و دم و روح و مشاعر و إبتسامات و دموع.....

فالواقع إنسانياً يختلف عن الواقع المنقول إخبارياً! و في العراق و هذا غالباً ما ننسأه أن أغلبية الموتى من العراقيين.

كنت أفكر بأصدقائي من العراقيين، الواقفين دوماً بالطوابير، دوماً تحت وطأة الخطر، و ذهني يُعيد و يكرر مراراً "..... و الذين نحن معهم ملتزمين "بحماية و ترويج العدالة الإجتماعية للجميع و لاسيما السلام و الحرية و القيم الأخلاقية....."

القاعة كانت مكتظة بـ38 رجل و امرأتين، كانوا جميعهم جالسين على المقاعد بشكل منظم و مُنهمكين في تسجيل كل ما يقوله المحاضرين.

ويكاد أن يكونوا حاضرين جميع الإداريين بمحافظة ذي قار، و هي محافظة شيعية بجنوب العراق و يمر بها نهر الفرات و أكبر مدنها مدينة الناصرية.

و أنا أعرف هذه المحافظة جيداً حيث ذهبت إليها بصحبة المتطوعين العاملين معي حوالي خمس مرات في الفترة ما بين أغسطس 2003 و يوليو 2004 و لقد كنا قد حملنا معنا حوالي 20 طن من المساعدات، و التي كانت تضمن مواد إستهلاكية و مواد مدرسية و صحية و مواد طويلة الأجل للنمو الإقتصادي و الإنتاجي و التقني، و لاسيما تمويل مالي لبناء مدرسة مهنية جديدة لتأهيل و تكوين المرضات و لبناء بعض مشاغل الخياطة . " نساعد الشعوب في بيوتها و نساعدنا من أجل مساعدة أنفسها" و هذا كان عنوان مهمتنا و لاسيما عنوان منظمنا.

بعض الموجودين كان لا يزال يتذكرونا و يتذكر تداخلتنا، و قد سبق و أن التقى بنا شخصياً أو شاهدنا عبر الإذاعة المرئية المحلية أثناء توزيعنا للمساعدات أو توقيعنا على مشاريع بصحبة عناصر القوات الإيطالية و الذين كانوا بالفعل يحظون بإحترام الجميع – و الذين كانوا مسؤولين عن عمليات تعمیر و إستقرار محافظة ذي قار – و بصحبة باربارا كونتيني ممثلة التحالف و محافظة المنطقة إلى غاية الإنتخابات الإدارية التي أجريت في شهر يونيو بعام 2004.

بالمناسبة كم من إيطاليا يعرف أن في هذه المحافظة العراقية التي كانت تحت الرعاية الإيطالية تم تنظيم الإنتخابات قبل غيرها من محافظات العراق بعام؟ فلا شيء يأتي صدفة. و بعد التحية المعتادة – السلام عليكم – و بعد مقدمة قصيرة نبدأ عرض الشريط التسجيلي للريور تاج الخاص بالمهمات التي قمنا بها بالعراق، بتعليقي الحر و بالترجمة الفورية إلى اللغة العربية.

و في أثناء مرور الصور من اللومبارديا إلى العراق، كنت ألاحظ الذهول و الحنين عند رؤيتهم لأرض الوطن و رؤيتها في الحالة التي كانت بها، في أغسطس 2003 البعيد، الشوارع خالية، المدن بدون كهرباء، المستشفيات بدون أدوية، و دور الأيتام بدون أسرة... ولكن بعد حين ظهرت الإبتسامات و التعليقات عندما برزت صور لمعالم التاريخ المجيد الذي يمتد إلى الآف السنين، معالم مثل زيقورات الناصرية، أي أرض أور، أرض سيدنا إبراهيم، أبو الأنبياء، أبو جميع الأديان التوحيدية.

و في تلك الأثناء إبتدأت شرحي كيف نشأ مشروعنا و كيفية عمله في البلدان التي تشهد صراعات (العراق و أفغانستان و السودان/دارفور و شمال شرق سيريلانكا...) ضمن التعاون الوطيد و الإلتزام البناء و كرم العديد من الأشخاص و الذين عبر العمل التطوعي و عبر الإيمان المطلق و الحب الجم، يختارون المشاريع و المبادرات سوياً مع المنتفعين بها، أخذين بعين الإعتبار حرمة التقاليد و العادات المحلية و يقومون بالتعاون بشكل بناء و منسجم مع المؤسسات و الشخصيات العامة و الخاصة و ذلك لتحديد و تخفيض التكاليف و مضاعفة الفعالية، "لأن الدولة لا يمكن أن تصل إلى جميع المناطق" و من جهة أخرى "ليس لديهم جمعيات كبيرة ذات وزن مثل الهيئات العامة "

و هذا الجمهور المميز، خلافاً عن جمهور أمسياتي في الندوات المعتادة، لا يحتاج إلى أي تعليق لشرح لماذا مدينة الناصرية كانت في عام 2003 تعاني من هذا الفقر، ولماذا هذا التناقض بينها وبين صور العاصمة بغداد التي لم تكن تعيش حينها ما تعيشه الآن من فوضى تامة و عنف.

هذا الجمهور يعرف جيداً، بغض النظر عن الحرب، التفرقة التي تعرض إليها جنوب الدولة الشيوعي من قبل النظام البعثي، و يعرف أن التيار الكهربائي كان يصل إلى البيوت 4 أو 5 ساعات باليوم فقط، و يعرف قصة الأنهار التي تم تغيير مسارها لتصحّر و تجفيف الأراضي الزراعية عمداً و لتدمير البيئة و لإبتزاز السكان بالماء و الغذاء، و يعرف جيداً الأضرار التي سببها حصار الأمم المتحدة و التي وقعت فقط على عاتق الفقراء.

ولكن هذا كان الماضي، العراق اليوم لا يحتاج إلى أي تفرقة أو تمييز – كم من الكلمات الغير المفيدة قيلت – و لكنه يحتاج إلى حلول فعلية، و لقد عملنا فقط في هذا الإتجاه و في هذا السياق في الحاضر و في المستقبل.

تمر صور أخرى على الشاشة، صورة عقب الأخرى، صور مذهلة صور، مثيرة للمشاعر: صور لجنرالات جيشنا و هم منهمكين في تفريغ الصناديق الأولى للمعونات من الشاحنات ("هذا كان أول تدخل فعلي، الأول من سلسلة طويلة" و هذا بعد إنتظار طويل و هذا بعد 15 يوم فقط من بداية عملية بابل القديمة، هذا ما قاله نائب قائد الكتيبة للإذاعة المرئية العراقية)، صور لجنود أضخام يلعبون مع الأطفال و يحملون أيتام العراق الصغار، و صور للقسيس العسكري وهو يقوم "باختلاس" البسكويت من المطعم العسكري لكي يوزعه على الأطفال المتواجدين حول قاعدة "White Horse، صور لسيدة لطيفة، مهندسة، مسنولة عن قسم الأشعة بمستشفى الأطفال، منهمة في تجربة آلة تصوير بأشعة X على يدها.

بينما الصور كانت تمر، الجمهور كان يبتسم و يعبر عن تعرفه على الأماكن و الأشخاص و الأحداث.

و من ثم رحلتنا نحو بغداد لتسليم المعونات لمستشفى المعسكر التابع للصليب الأحمر الإيطالي و هنا تبدأ قصة أول عملية تفجيرية إرهابية و التي تمت في ذاك اليوم بالسفارة الأردنية بيد "أنصار الإسلام" و الذي قام بسرده و نقله الصحفي الإيطالي بينو سكاتشا مبعوث راي نيوز. في التفجير لقي حتفهم مواطنين أردنيين و عراقيون و من بينهم أم شابة و طفلها و اللذان كانا يمران صدفة. نحن حينها كنا في بغداد و لكننا علمنا بالعملية عند إتصالنا هاتفياً بإيطاليا.

و من ثم العودة إلى الناصرية و تمر صور أخرى لزيارة ليلية خارقة للعادة لعائلة بدوية في الصحراء و التي إستقبلتنا بالأحضان و بالترحاب الحار: "لقد كنا أول الغربيين الذين يزورون البدو و لقد قال لنا الآخرين عند عودتنا إلى المعسكر أننا إفتتحنا العلاقات مع البدو". و تمر الصور عبر الزمن و عبر الفضاء. و تمر الأشهر من مهمة إلى أخرى و تسلط الضوء على التحسينات و الإصلاحات على صعيد التعمير المعنوي و الإجتماعي و الإقتصادي و السياسي للمحافظة العراقية تحت القيادة الصديقة للإيطاليين، بمجهود و التزام و إرادة طيبة موحدة، و لكن قبل أي شيء بقلوب موحدة.

الطرق الآن أكثر إزدحاماً و عادت الدكاكين لفتح أبوابها و عاد الفتيان و الفتيات إلى المدرسة و عادت الكهرباء تقريبا طوال اليوم.

و لكن الإجراءات الأمنية بالنسبة لنا و لعناصر قواتنا العسكرية كانت في إزدیاد مستمر.

المعونات تضاعفت بفضل كرم إناس طبيين و بفضل العديد من الشركات التي استجابت لدعواتنا عندما شاهدوا صور لعراق "مختلف".

أطنان من الأدوية و من المعدات الطبية للمستشفيات و المستوصفات و مضخات لمياه الري و جرار لمعهد زراعي و مولد كهربائي ضخيم لمستشفى و آلات خياطة و أقمشة و أنسجة مغزولة للأرامل و الأيتام و ألعاب و مواد تعليمية و ملابس و مواد غذائية للأطفال....

"إن سقوط شجرة واحدة يدوي أكثر من نمو غابة بأكملها" هذا ما يقوله المثل و نحن نحب أن نظهر الغابة. و لكن حتى في غابتنا تسقط النباتات، و تمر صور لوجوه أصدقائنا المبتسمة – المتطوع ستيفانو رولا و بعض الجنود وهم منهمكين في العمل الدعوب – في القاعدة .. و الذين لقوا مصرعهم في هذا اليوم المأساوي بتاريخ 12 نوفمبر 2003.

فوق الشاشة نرى صور لقاعدة شرطة الدرك Carabinieri و هي لا تزال عامرة و حية، تترك مكانها لصور أخرى، صور لقاعدة مدمرة و صور لهوة سببها انفجار السيارة المفخخة كانت يقودها أجناب يريدون عرقلة السلام و عرقلة تطور المنطقة.

و في ذلك الانفجار لم يلقوا حتفهم، علاوة على المنتحر، 19 إيطالي فحسب و لكن حتى 7 عراقيين من سكان الناصرية، بينما جرح العديد، من الأطفال بجروح خطيرة و خفيفة، و لكن جميعهم سيحملون بداخلهم آثار ما حدث طوال حياتهم.

بينما كنت أعلق بصوتي المتقطع بسبب المشاعر على الصور إمتلنت عيون الجمهور بالدموع. كما كنت أود أن يكون هنا في هذه اللحظة كل من يعتقد أن جميع المسلمين – و جميع العراقيين المساكين – هم من الإرهابيين.... و لكن كنت أود أن يكون أيضاً موجود من يعتقد أن من يفجر نفسه في العراق ليس بإرهابي.

و لقد لاحظت حينها أن قلبي كمسيحية و قلوب أصدقائي المسلمين الأربعين كانوا يتحدثون نفس اللغة: لغة الحب و العقلانية. لغة كتبها الله الرحمن الرحيم في قلب كل إنسان لم تخفقه أي إيديولوجية إستبدادية.

ماذا تكون إن لم تكن مبادرة حب، الصداقة التي تنبعث من صور شريطنا، صور لإبتسامات الأطفال و المعلمات في دور الأيتام التي تم ترميمها، و الفرحة و البهجة العامرة في حفل إفتتاح مدرسة الممرضات، في تعانق الأرامل اللاتي فقدن أزواجهن بسبب النظام القديم؟

من أين ستأتي، إن لم تأتي من قلوب الرجال و النساء الإرادة الطيبة للبدأ في بناء السلام؟

و ينتهي الشريط بصور قبالات و أحضان النساء البدويات الحارة و تصفيق و تعابير الإحترام و التقدير من قبل أصدقائنا العراقيين.

و لاحظ مرة أخرى أن السلام ما بين الشعوب ممكن، كما هو ممكن ما بين الأشخاص، عندما يكونوا مدركين لهويتهم، أصدقاء في الاختلاف، الكل سلطان في بيته و محترم في بيت الآخرين.

مداخلتي في الدورة حول النزاهة و العدالة في العراق كانت تجربة مثيرة و عليه أشكر كثيراً السيدة تيريزا براسيولو و ترانسبارنسي انترناشيونال و وزارة الشؤون الخارجية الإيطالية.

ولكن أجمل شيء على الإطلاق كان عندما علمت لاحقاً أن بفضل مداخلتي و بفضل مداخلات أخرى، قرر بعض المشاركين بالدورة تأسيس، عند عودتهم إلى أرض الوطن، جمعية غير ربحية لرعاية الأيتام في الناصرية.
من النظرية إلى التطبيق، إذا نجحت الدورة فعلاً.

سارة فوماجالي